العذريون والتصوّف

بقلم إحسان الملائكة

فئة كبيرة من المستشرقين الباحثين في التاريخ الاسلامي تصر على ان التصوف ظاهرة دينية اقتبسها العرب المسلمون عن الاوروبيين المسيحيين وقلدوهم فيها ، ودليلهم على ذلك ما يلحظونه من تقارب بين فكرة (المحبة) لدى المسيحيين ومذهب (الحب) لدى المتصوفة المسلمين، وما يعرفونه من اصرار الطرفين على ضرورة التقشف واعتزال الناس ثم اتباعهما لطائفة من المراسيم ، التي قد تبدو لغير العيون المتفحصة ، متماثلة متشابهة ، وهذه الفئة من المستشرقين لا تستطيع ان تنسى ان المسيح نفسه كان متصوفا عظيما ولذلك فهي تتعمد التغافل عن الحقيقة الاخرى وهي ان التصوف كان معروفا بين البشر قبل مولد المسيح ، وسكان الهلال الخصيب على اي حال سمعوا به عن طريق جيرانهم الفرس وعرفوا عنه الكثير من اصدقائهم الهنود .

والحق ان التصوف نزعة انسانية عامة قد تنبعث من اي مكان وتوجد في كل زمان . والانسان ظل يحلم بالخالق (المعبود) منذ القدم وما زال يتلهف للفناء فيه حتى في هذا العصر المادي الكئيب .

اما عن العرب فان ابسط دراسة لنفسيتهم يمكنها ان تثبت ان التصوف انما كان ـ وما زال ـ طبيعة ملازمة لها، تأتيها من امتداد الرمال وصفاء السماء وعذوبة النسيم ، طبيعة اودعتها فيها تلك الايام الصيفية الطويلة ، وبعثتها في اعماقها الليالي الساكنة المعطرة بنور قمر لا يغيب ،قمر الصحراء الرائع الذي لا يعرفه الا سكان هذه الصحراء لانهم يتلمسون فيه الجمال ويجدون لديه الانس والرفقة ويطلبون منه الهداية وسواء السبيل .

ولقد عرف العرب التصوف على مراحل ، وتجلت احدى هذه المراحل في الفترة التي نشأ فيها (الحب العذري) فوجدنا قيسا وهو رمز للعشاق العذريين جميعا ، يهيم ابدا في الصحارى ، يعاشر الظباء ويسامر الغزلان وينفر من الناس ويصر على تمزيق ملابسه والبقاء عاريا الى ان يتهم بالجنون وما هو بمجنون . ورأينا بني قومه يصدقون مظاهر الجنون البادية عليه حتى يصيبهم اليأس من صلاح حاله بعد ان ذهبت كل محاولاتهم في ارجاعه الى سبيل الرشاد ادراج الرياح . ثم شهدناهم يلجأون الى ذكر اسم ليلى في حضرته كلما رغبوا في اعادته الى حالة الوعي واذا به ينتفض ويبدو في تمام عقله ، يخاطب الوالي باحترام ويطلب منه التوسط لدى ليلى واهلها او يذهب الى (ورد) زوج ليلى فيحدثه حديث العاشق في جحيم غيرته ومحنة حرمانه ، ولا ينسى ـ خلال ذلك كله ـ ان يلاحق ليلى من مكان الى آخر طالبا مقابلتها فيوفق مرة ويخفق مرات وهو في كل ذلك لا يخطيء ولا يسيء ولا يهلوس . كان مصابا بجنون الحب اذن ولم يعرف عنه الجنون العقلي اطلاقا .

وكان قيس فوق ذلك عاشقا بكّاء يغمى عليه في كل آن ويشهق شهقة حادة كلما طرق سمعه اسم ليلى او ذكرها حتى كأنه قد مات . ويتملك الانسان العجب حين يعلم ان هذا الشاب كان يملك كل الصفات التي تحببه الى العذارى فقد كان يملك صفات الرومانتيكية التي يتعشقنها ابدا ، وسامة باهرة ، واناقة مترفة ، وجاها عريضا . مثل هذا الشاب كان يستطيع ـ لو شاء ـ ان يفوز بقلب عشر ليليات لا ليلى واحدة ! ومع ذلك فان شيئا من ذلك لم يحدث ، لان قيسا آثر العذاب واختار السبيل الاصعب ، فقضى شبابه كله هائما في الصحارى وهو ضائع لهفان مدله في حب فتاة لا امل في الفوز بها لانها اختارت غيره بكامل ارادتها وتمام وعيها .

هذا يدلنا على ان قيسا لم يكن عاشقا لليلى بقدر ما كان عاشقا لنفسه وقد عناه ابن الفارض كما عنى كل عاشق حين قال :

وما زلت اياها واياي لم تزل ولا فرق بل ذاتي لذاتي احبت

اذن فقيس كان يبحث عن نفسه حين ألزم نفسه الوفاء لليلى رغم علمه بأنها تزوجت (وردا) الذي كان يستطيع ـ ونجح فعلا ـ ان يحول قلب ليلى اليه . وكانت غيرة قيس من ورد في مكانها، فقد احبت ليلى زوجها حبا كاملا ،ولكنها مع ذلك ظلت وفية لذكريات حبها الاول ، الذكريات التي ظلت حية متمثلة في قيس المعذب . واذا كانت ليلى قد ماتت فليس ذلك بسبب حرمانها من قيس ـ ذلك سبب واه جدا وكان أولى بقيس اذن ان يموت وهو الوحيد المشرد التالف ـ وانما ماتت ليلى بسبب حدة الصراع الذي كان يقوم في نفسها دائما : فهي بين دافعين متضادين ، احدهما يغمرها بالسعادة والرضى بين ذراعي زوج محبوب، وثانيهما يملؤها اشفاقا ورحمة وتأنيبا حادا من ضمير لا يرحم نحو شاب رومانتيكي لا يرضى لقلبه النسيان ويبدو انه متمسك بهيكل الحب يصلي فيه ولو تحول الى قبر رهيب .

وقيس تتلخص مأساته في انه لم يستطع تحقيق وجوده الكامل ، ولو كان قد تزوج ليلى لتبدل الحال ولجعلته الظروف المادية ينظر الى الحياة من زاوية اخرى ، ولكنه لم يفز بحبيبته التي كانت في اعتقاده التفسير الوحيد لمعنى الحياة ، وهكذا هام في البراري ينشد نفسه ،والمجهول في بحثه عن ليلاه .

ولو كان قيس من ابناء عصرنا الحاضر لصار وجوديا مائة بالمائة وذلك بعد زفاف ليلى ببضعة اشهر ! وفي وجودية (سارتر) كان سيتحول من رومانتيكيته البريئة الحزينة الى الضياع الكامل متمثلا بأبطال (اندريه جيد) ، واخيرا فسوف يدخل سلك الوجوديين الايجابيين الذين يعملون سرا في سبيل حرية الوطن !

ومن هنا ينكشف سر قيس ، كان رائدا للصوفية ، ولكنه لم يكتب له ان يحل اللغز لنفسه ، لغز الحياة ، فمات وهو يتساءل وينشد المعرفة ويتلمس الخلاص دون جدوى .

ان صفات العشاق العذريين كانت دائما تسير وفق الخطة التالية : دقة متناهية في الحس ، عاطفة ملتهبة ابدا ، اندماج كلي بالطبيعة ، قلق وحيرة دائمان ، حزن يصحبه ابدا بكاء متواصل وشهقات مفاجئة ودموع مدرارة واغماء في متناول اليد !

وهل كانت صفات المتصوفة غير هذه؟ بل هل كانت قصص العشاق العذريين غير قصص اولياء الصوفية انفسهم ؟!

وأدرك ابن الفارض امام الصوفية هذه الحقيقة وفهمها احسن فهم حين قال في تائيته الكبرى الموسومة بنظم السلوك موضحا مسائل مذهبه في وحدة الوجود ومتحدثا عن الذات الالهية المعشوقة في علاقتها بالنفس الانسانية العاشقة : ـ

وما برحت تبدو وتخفى لعلة
على حسب الاوقات في كل حقبة

وتظهر للعشاق في كل مظهر
من اللبس من اشكال حسن بديعة

ففي مرة لبنى واخرى بثينة
وآونة تدعى بعزة عزت

ولسن سواها لا ولا كن غيرها
وما ان لها في حسنها من شبيهة

كذاك بحكم الاتحاد بحسنها
كما لي بدت في غيرها وتزينت

بدوت لها في كل صب متيم
بأي بديع حسنه وبأيّة

وليسوا بغيري في الهوى لتقدم
علي لسبق في الليالي القديمة

رما القوم غيري في هواها وانما
ظهرت لهم للبس في كل هيئة

ففي مرة قيسا واخرى كثيرا
وآونة ابدو جميل بثينة

أسام بها كنت المسمى حقيقة
وكنت لي البادي بنفس تخفت

وما زلت اياها واياي لم تزل
ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت

وهكذا ميز ابن الفارض اخوانه الحقيقيين بين الاف الزهاد والاتقياء والقديسين الذين حفل بهم التاريخ القديم وانزلهم المنزلة التي يستحقونها عن جدارة .

ثم نمضي في تقصي أخبار اولئك العشاق في المصادر التي عنيت بتلك الاخبار فاذا بأمر غير مفهوم يستوقفنا ،ان بني عامر قوم قيس (حسب ما ترويه الروايات) يتبرأون منه ويرفعون اصواتهم محتجين على نسبة قيس اليهم . جاء في الاغاني : (قيل لرجل من بني عامر : هل تعرفون فيكم المجنون الذي قتله العشق ؟ فقال : هذا باطل !! انما يقتل العشق هذه اليمانية الضعاف القلوب) !!

ذلك يثبت ما ذهب اليه هذا المقال من ان اولئك العشاق كانوا اكثر من ـ مجرد عشاق . كان في الامر شيء آخر . انه (الموقف) تجاه الحياة ، الموقف الذي انكره بنو عامر على قيس اذ اعتبروه ضعفا وتخاذلا . انهم لا يفهمون كيف يهلك شاب له مثل ميزات قيس ان يموت في سبيل حبه لامرأة معينة من النساء . كانوا يجهلون طبيعة المأساة التي عاناها ولذلك ظل قيس غريبا في بني قومه فهو لديهم مجنون وما هو بمجنون لو كانوا يعلمون .

وباسلوبنا العصري نستطيع ان نفسر موقف العشاق العذريين كما يأتي : كان هذا الفريق من الشبان يمثلون في زمانهم الجيل الطالع بل لنقل : احلام الجيل الجديد وآمال جيل المستقبل ، فقد فتحوا النوافذ على مستقبل لم يدرك كنهه ابناء عصرهم وهكذا اطلوا مستطلعين متلهفين مشوقين الى المعرفة متلمسين اليقين دون جدوى ، ذلك ان التصوف لم يكن قد اتخذ قالبه الرصين الثابت بعد .

وحين كمل البناء وتهيأ لمذهب التصوف النصر الحاسم في عصور متأخرة لم يعد (العذاب) هو الهدف الذي يسعى اليه الشبان ذوو العواطف المرهفة ، ذلك ان الباب المسدود انفتح فجأة على مصراعيه وفي مدخله كان يجثو اولئك المتصوفة الكبار ، ابن الفارض ، وابن عربي والحلاج واخوتهم ، اعينهم تحدق مشدوهة في الفراغ وايديهم تشير الى (السالك) لتهديه الى فيض النور ومنبع الحقيقة الازلية .

ـ للحديث بقية ـ

بغداد

احسان الملائكة